

في طبيعة الموسيقى وإمكانياتها

نجيب شيشون

أستاذ بقسم الموسيقى، المدرسة العليا للأساتذة، القبة

ملاً الإنتاج الموسيقي أرجاء الدنيا، وصارت استخدامات الموسيقى لا حدود لها، واحتلالها لمكانة رفيعة في بعض الأمم والحضارات ليست وليدة التطورات الحديثة والتجارب التي مر بها هذا الفن، بل لطالما آمن القدماء بما للموسيقى من تأثير على النفس يتجاوز تأثير كل الفنون، وتلقّفت أطياف من الأجيال المتعاقبة تلك الأحكام بمكانة الموسيقى من منطلق قدرة الأصوات والإيقاعات الجميلة من بعث السرور في الحواس، وبغاية إحداث استجابات في السامع تؤدي به إلى السلوك القويم ... وهو الرأي الذي دافع عنه العارفون المتذوقون باعتباره الغاية الأهم لظاهرة الموسيقى.

لقد تبين، بحسب شواهد من التاريخ -حتى في أصعب الظروف التي اعترت الموسيقى حين جنح جَلّ الآباء ورجال الدين إلى إصدار قواعد موسيقية صارمة وبأوامر مطلقة- أن الألحان التي تتبعها النصوص والتراتيل كانت تجذب الجماهير إلى دور العبادة. كما أن نظرة كثير من الفلاسفة والساسة إلى الموسيقى بعين الريبة لم تمنعهم من أفراد مكانة لها في مختلف النظم، منها التربوية والوجدانية والترفيهية، مع أن ذلك كان وفق ضوابط وقوانين معينة. لكنه من الطريف أن قصة نموّ الموسيقى هي بإيجاز خروج مستمر ومنتظم على القواعد أكثر منها التزاما بها [2]. ومهما يكن من أمر فبدون حدّ أدنى من القواعد سنلج عالم الفوضى!

يقودنا هذا إلى القول بأن ما يسمى بالقوانين التي تطبق على الموسيقى أو القوانين الموسيقية ليست مثل قوانين الفيزيائي، وإنما هي نوع من التقاليد التي اتفق عليها الموسيقيون دون غيرهم، لأن مصبّ العمل الموسيقي نفسه يكون عبر الحكم والتقدير الذاتي، علما أن عمليات التذوق تتعلق بما لا نهاية من المنطلقات والأبعاد والعادات والمفاهيم، يضاف إليها تباين القراءات بحسب الحالة النفسية التي تعترى المتلقي.

1. من أين للموسيقى تلك الجاذبية؟

لكن من أين للموسيقى تلك الجاذبية التي تربط الإنسان وتُخضعه لتذوق شيء منها ولو مناسباتيا؟ لقد جُبل الإنسان على أن يعيش بكل أعضائه بإيقاع منتظم، ربما يكون مختلفا، لكنه متجانس ومتكامل... إذا اختل عضو منه اختل جسم الإنسان كله. ونحن في زمنٍ جُلّ ما يحيط بنا وفينا يُخلّ بنظام إيقاعنا، ولذا أصبح لزاما على المرء البحث عن سبل استعادة ذلك التوازن. من هنا جاءت فكرة البحث عن تنظيم الإيقاع الداخلي للإنسان حيث اهتدى كثير من المختصين، فيما اهتموا إليه، منذ عهود قديمة إلى الاستعانة بما تقترحه وتوفّره الموسيقى من إمكانيات.

كيف لا والنسق الإيقاعي - النغمي يمثّل "الفن الأكثر نقاءً النابع من المشاعر" [2]، وهو أرفع ما يختلج في الإنسان فيتيج باب المحاكاة، ومن ثمّ صار الإنسان يتلمّس ويجاري أبلغ تلك المسالك. وهكذا كانت المسارات النغمية والإيقاعية الملهمة من نظام التوافق الطبيعي من أدقّ البناءات والأنظمة التي اهتدى إليها وصنعها البشر، وذلك بما ثبت عبر الممارسات الفردية والجماعية عبر الأزمنة. وربما يكفينا إقرار العلامة عبد الرحمن ابن خلدون عندما ربط أول ما تقاس به الحضارة بالعمران، وأن أول ما يبنى من العمران هو الموسيقى، وكأنه أراد القول: لو أنّ موسيقا زمانكم يعبر عن حال أمتكم. وعليه ينبغي إدراك الآفاق الناجمة عن التوافق المنشود بين إيقاع الموسيقى وإيقاع الوحدة العضوية للنفس والجسم، والسماح بمساهمة الموسيقى في التصدي لبعض الخلل مما قد يصيب النفس والجسم وعواقب ذلك على سوية المجتمع.

2. من صور استخدامات الموسيقى

كثيرا ما نشاهد أو نسمع:

المربيات يهددن الأطفال الصغار حتى يناموا،
والأطفال يتغنون ويدندنون بحناجرهم عندما يرتعون ويلعبون،
والفلاحون يغنون في طقوس "التويذة" لجمع غلات الأرض،
وأصوات المغنيات والمغنين تصدح لمرافقة طقوس أفراح الزواج والختان،
والموكب الجنائزي يزداد تأثيره بأداء أو عزف مارشات مرافقة النعوش،
وفي الواقع إن لم تتوفر لفرقة عسكرية موسيقى، فسيوجد لها الجنود أنفسهم بالإنشاد وترجيع الصوت،
والإيقاع بالأقدام أو بما أوتوا من وسائل أخرى. والتساؤل الذي يلوح في الأذهان هو ما الذي يجعل تلك الصور وغيرها مستساغة لدى أغلب الناس في مختلف المجتمعات؟

من الصور أيضا، تلك التي تركته لنا مواقف بعض الشخصيات البارزة، فهذا العبقرى اينشتاين في أشهر ما يُعدّ حكمة واسعة الانتشار في المواقع الإلكترونية يقول: لو لم أكن فيزيائيا من المحتمل أن أصبح موسيقيا، أحلام اليقظة لدي.. موسيقى، وأجمل أوقاتي هي التي أقضيها بالعزف على الكمان. والفد الآخر شكسبير يعلن: إذا كانت الموسيقى طعام الحب فهلمّ والعبا. بل ليس غريبا على أسر المجتمعات الغربية تخصيص ميزانيات سنوية مستقلة موجهة لحضور أمسيات عروض الكونشرتات والسيمفونيات ومختلف الأعمال الموسيقية. وما كان ذلك إلا تمكينا للقدرات التي تكتنّزها وتبثها الموسيقى حتى تساهم في بناء الفرد ومنه المجتمع، وذلك تنفيذًا للإصلاحات التي انجرت عن حركية عصر النهضة وما بعدها في مجتمع الغرب والمنبثقة عن إيمانهم بمفعول الموسيقى الإيجابي.

كما لا يجب أن يفوتنا أيضا في هذا المقام إيراد مثال آخر جدير بالملاحظة ومدعاة للتدبّر، حيث، ما كان عبثا، أو صدفة، اللجوء إلى الاستعانة بإمكانيات الموسيقى لتنظيم الحياة الراقية أيام الدولة الأندلسية عندما هبّئ لكل ساعة من زمن اليوم سلسلة غنائية تدعى "توبة". فكانت المحصلة أربع وعشرون توبة كلَّ

منها بلونٍ وطبعٍ يوافق أحوال النفس البشرية المتبدّلة بين لحظةٍ وأخرى، وذلك بإسقاط خلاصة توصيات الشيخ الرئيس الطبيب ابن سينا، ومساهمات المبدع زرياب.

وقد اقتبست منه بعض المجتمعات المحافظة إلى اليوم في مجال الطقوس الدينية مثلاً ما يُعرف بألوان الطبوع والمقامات التي يُؤدى بها الأذان للصلاة والتي من "المهم أن تتغير وتتلون" من وقت دخول صلاة إلى أخرى بحسب موقعها بين طرفي النهار. كما نجد ذلك في الابتهاالات والمدائح خلال إحياء المناسبات، ولا تفسير لأهمية تبدل تلك الألوان من الطبوع سوى تعلّقها بمزاج البشر وما يواتيه ويحرّكه من أنغام بتعاقب فترات اليوم تُكسبه شيئاً من الراحة والالتزان.

3. طاقة الموسيقى

الطاقات التي تبثها الموسيقى معروفة لدينا من خلال المظاهر التي تتحقق باختلاف المناسبات والأعمال الموسيقية، وربما سببها الأول أن الموسيقى تتبع من أحاسيس سامية، أحاسيس لا تنتمي إلى حياتنا اليومية وما تتخلّلها من أحداث. إنها تخلق في وجداننا حالة فريدة من الشعور أو المزاج... تجعل وعينا الإنساني يبتعد عن كل ما يحدث بعالمنا من مشاكل ومتاعب يومية واجتماعية [3]. ولكننا لا نعرف سوى القليل عن طبيعة الموسيقى وطريقة تأثيرها!

من المعروف أن الصوت الموسيقي يحدث نتيجة ذبذبة الهواء، وكلما زادت سرعة الذبذبات في الثانية زادت حدة الصوت، وتلك الموجات تلتقطها الأذن أو تحسّها الأطراف فيهتّر الجسم تجاوباً كما كان الحال بالنسبة للمؤلف الموسيقي بيتهوفن بعدما أصبح من الصمّ، ورغم ذلك واصل التأليف ومعايشة أعماله. إننا نعتمد اعتماداً كلياً على حواسنا حتى في أبسط المعلومات الأولية، والحواس هي التي تقوم باستقبال المعلومات والمؤثرات وتوصيلها إلى المخّ، ومن مجموع تلك التأثيرات تنمو الذائقة الجمالية لدى الإنسان. فكيف يمكن تفسير قدرة الموسيقى على النفاذ إلى كل عضو في أجسامنا وإثارة ألوان الإحساس في وجداننا؟ إن ذبذبة أي جسم يمكنها التأثير على ذبذبة جسم آخر، فإذا كانت هنالك آلة جيتار على مسافة من آلة جيتار أخرى، ثم عملت على اهتزاز الوتر "صول" مثلاً للجيتار الأول فإن نفس وتر الجيتار الثاني البعيد عنها سيهتّز، وكثيراً ما تتكرر تجربة تكرار الصوت الصادر عن جسم ما بما يشبه الصدى في جسم آخر من حولنا إن نحن أمعنا التركيز. من هنا يمكننا تخيل ومجازة تجاوب اهتزازات انفعالاتنا مع القدرة الاهتزازية التفاعلية الناجمة عن شريط الأنغام المتدفّق.

ومن الحقائق العلمية المسلّم بها، أن في أجسامنا جهازين هاميين يشتغلان فيما بينهما لمصلحة الكائن الحيّ وهما الجهاز العصبي وجهاز الغدد، ويعملان بتناسق مذهل ورسالتهم قوامها حفظ توازن الكائن وحمايته من المؤثرات الداخلية والخارجية التي تعتريه [3].

والواقع أن دور الغدد - وإن كان ليس من صلب تخصصنا، إلا أنه يُعتبر أحد مظاهر إعجاز التكوين العضوي للكائنات الحية- يتملّ في كونها تعمل ليل نهار على إفراز هرموناتها الحيوية لتلبية

مختلف الظروف والاحتياجات. وإذا كانت الأبحاث العالمية قد أكدت تأثير الموسيقى على النفس والجسم، فمن أين وكيف يأتي هذا التأثير؟

أجاب العلماء على هذا الموضوع بالمفهوم التالي: عندما تستقبل الأذن الصوت الخارجي ترسله إلى المراكز المسؤولة في المخ. ومن هذه المراكز يتحرك الجهازان الحيويان، العصبي كقائد أعلى -والذي يتمركز في رؤوسنا- وجهاز الغدد -الذي ينتشر في مناطق متفرقة من أجسامنا- بتوجيه من الغدة النخامية لتحديد نوع الاستجابة وإفراز الهرمونات الكفيلة بتحقيق الاستجابة المطلوبة [3].

4. ثبوت تأثير الموسيقى

ثبوت تأثير الموسيقى وأهمية التنشئة على تذوق نصيب منها: ما كان ذلك الحكم وذلك الميول إلى الاهتمام بتلك التفاصيل المتصلة بألوان النغم والإيقاع إلا لقدرة الألمان التأثيرية في نفوس الناس. ذلك أن مدخلها الحواس، ومدخل الحواس أقوى تأثيراً لأن الفرد يشعر بما يتوفر في الفنون، وخاصة الموسيقى، من اهتمام وطاقة وعندما يتشبع بها، يصبح قادراً على تذوق كل ما هو جميل.

ويتحدث في هذا الصدد المؤرخ الإغريقي بلوتارك [1] عن نجاح التربية اليونانية الذي يعزوه إلى تربيته الموسيقية بقوله: ومهما يكن من أمر فإن الذي يشبّ على دراسة الموسيقى وينشأ على تربية موسيقية ملائمة لتكوينه فإنه سيتمسك بكل ما هو نبيل وكريم ويكون بعيداً عن كل عمل قبيح. والبحوث والدراسات تقول بأن الفرد الذي يستطيع أن يؤدي أداءً موسيقياً بنفسه يمكنه أن يحكم حكماً صحيحاً على أداء الآخرين ليس الموسيقي فحسب، بل من جوانب عدّة.

لذلك يوصي الشاعر الألماني غوته في اقتباس مشهور على المواقع الإلكترونية بقوله: ينبغي أن يسمع الإنسان كل يوم قليلاً من الموسيقى... ويقراً قصيدة جيدة... ويرى صورة جميلة... ويقول - إن أمكن - كلمات قليلة معقولة، وهذا تأسياً ربما بالفيلسوف المثالي أفلاطون الذي يعتبر أن الموسيقى تعطي الكون روحاً والعقل أجنحة... وجنوحاً للخير وحياء لكل شيء.

5. أهم العوامل الموسيقية وإمكاناتها التأثيرية

(أ) النغم (المقام): المقام هو النظام النغمي الذي يعتمد البناء اللحني لكل فكرة موسيقية، وهو الأسلوب المستخدم في صياغة الألحان وتركيبها بمزج الدرجات الصوتية ببعضها البعض حتى تصبح نسيجا نغمياً متماسكاً يحمل طابعاً متميزاً ذا هيئة كاملة الملامح. وهنا يجب إدراك أن نوعية الانفعالات لمجموع الأنغام في هذه الهيئة كاملة الملامح تتناسب طردياً مع انفعالات أجسامنا البشرية، أي كلما زادت المسافات والأبعاد المحصورة بين الأنغام المشكّلة لمقام اللحن اتساعاً، أنتج في جسم المتلقي إحساساً بالاتساع أيضاً، ومن ثمّ إحساساً بالأمان والنشاط والشجاعة والفرح، وهو مفعول الأعمال الموسيقية المبنية على المقام الكبير.

والعكس يفعله المقام الصغير: فتقارب وضيق المسافات له مفعول على الأجسام بالضيق والانقباض والحزن، مثلما يذكرنا أثر أحد المقامات المشهورة في بيئتنا الشرقية ألا وهو مقام "الصبا" الحزين -المشكّل من أبعاد ضيقة- ذو التأثير الحزين على أنفسنا ما إن نتعرض لتجربة سماع لعمل موسيقي بهذا المقام. كما ثمة من المقامات الصغيرة، خاصة الدارج استعمالها في الموسيقى الشرقية والعربية، ما يبعث الإحساس بالهدوء والوقار والعظمة مثل مقامي السيكما والبيات.

والأمر كما نلاحظ دقيق ومتشعب كما يقتضيه أي انجاز يستدعي فائق العناية. ومن المعلوم أن أعداد هذه الألوان من المقامات يقدر بالعشرات باحتساب نظام الأساس والاشتقاق بعدما اختزلت أعدادها بسبب التوارث الشفهي وتدخل باقي التأثيرات بما يُعد تشويشا أفقد المزاج سويته وقدرته الاستيعابية في كثير من الحالات. هذه الألوان من المقامات تتلون وتنبدل من بيئة إلى أخرى بمثل ما تتعدّد وتتوّع الألوان من الأجناس والطباع البشرية.

وإجمالاً، ربما يساعدنا في حصر مجالات تأثير الأنسجة النغمية على المتلقين استعمال التعبيرين "مزاج كبير" و"مزاج صغير" [3] وما بينهما، كما ذكره أحد العلماء الروس، بل قد نتذكر تعبير "صالح المزاج" كأولوية لحجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وما يلزمه من ضوابط.

(ب) سرعة الزمن الموسيقي: الزمن الموسيقي لا ينفصل عن إيقاع الجسم الإنساني، فإذا كان أبطأ من دقات القلب اعتبرت الموسيقى بطيئة والعكس صحيح. وترى بعض الدراسات التي أجريت في أمريكا وبلاد غربية أنه إذا زادت سرعة إيقاع الموسيقى عن سرعة إيقاع القلب فإن هذه الموسيقى تسبب للمستمع حالة من المرح والنشاط، وإذا تطابقت سرعتها مع دقات القلب فإن هذه الموسيقى لا تسبب إثارة غير طبيعية، وأما إن كانت أبطأ من دقات القلب فإنها تسبب للمستمع حالة من الهدوء [3].

كما أثبتت دراسات أخرى أن الأزمنة البطيئة ترتبط بصفات الوقار والهدوء والنعومة وأحياناً الحزن، وهي المشاعر التي ترافق بها المقطوعات الأندلسية (الموروثة عن الأندلس) مثلاً ذات الميول إلى البُطء في سرعات إيقاعاتها، أو أغنية الشعبي المنتسبة إلى العاصمة، وحتى أكثر الأغاني الفولكلورية بمختلف المناطق، وهي كذلك نفس الصفات تقريبا حتى مع أغلب القصائد الطربية العربية لأن هذه الأعمال والتعبيرات الفنية تلخص الصفات الجمعية للمجتمع الجزائري والعربي.

أما الأزمنة السريعة، والتي أكثر ما تميّز أنماط التأليفات لموسيقى الشباب، فتثير المرح والرشاقة والحيوية المغلقة بالسعادة. تلك الانطلاقات الموسيقية كثيرا ما تلحق بها البعض من أحكام المشاعر، تماما كما تُلحق بالانبعاثات الشبانية في أفعالهم وردود أفعالهم، بما يمكن أن يوصف بصفات ما قبل النضج! ومن جهة أخرى، فقد أكّدت بعض تلك التجارب أن الزمن السريع يؤدي إلى زيادة في سرعة دقات القلب والبطيء لا يحدث تأثيرا.

ج) الإيقاع: إن الإيقاع هو العنصر الجذاب الذي استطاع أن يحسه ويتذوقه الإنسان منذ ما قبل التاريخ. والواقع أن الإيقاع يبرز أمانا وكأنه العنصر المشترك لجميع عادات وثقافات الشعوب، فهو المنظم لحركة الأجرام في السماء والمنظم لدقات القلب، وهو القوة الدافعة للطاقة الحيوية للإنسان ولسائر الكائنات. ولذلك فالإيقاع هو المثير للحركة، والمعطي للطاقة، والرابط المشترك للمنظم لجماعية الحركة. ولنا في استعراضات الفرق العسكرية مثلا، حيث لا نكاد نتخيلها من دون إيقاع الطبول والمارشات لأن الإيقاع يؤدي إلى النشاط الممنهج الذي هو الصفة الأولى التي يجب أن تتسم بها حركات تلك الفرق. وقد تمت الاستفادة من هذه الحقائق المرتبطة بأهمية الإيقاع لزيادة النشاط والعمل وتطوير الإنتاج. ومن الأمثلة التاريخية في الموضوع ما نُسب إلى نابليون بونابرت، عندما عزا هزيمته في إحدى المواقع أمام الروس إلى قوة تأثير الإيقاع المصاحب للجنود الروس أثناء المعركة. وعندما ربط أحد الباحثين الشعور بالسعادة والرفقة وحالات العاطفة الحاملة بالإيقاعات الناعمة، قال: الموسيقى قد تكون أحيانا وسيلة للهروب من الواقع... لأن إيقاعها الأساسي يجعل الوعي ينزوي بعض الوقت خلف ارتجافات وأوهام وانطلاقات اللاوعي.

ومن حقائق، بل غرائب الإيقاع الموسيقي أنه إذا ظل الزمن والإيقاع ثابتين فإن رتبة الموسيقى قد تسهم في تهدئة المستمع والإقلال من قلقه، في حين أن تزايد تغيير الإيقاع والزمن يؤديان إلى عكس ذلك [3]. ولا يفوتنا في هذا المقام ذكر أحد أبرز المكتشفين لأثر الإيقاعات الموسيقية في تربية وإنماء وعلاج النفس والجسم بأساليب موسيقية علمية مدروسة، وتعدّ طريقته من أفضل الطرائق المشهود لها عالميا: إنه الفنان والعالم السويسري إميل جاك دالكروز (Émile Jaques-Dalcroze) (1865-1950). أما سبب ذكره هنا دون غيره هو ارتباط تفجير عبقريته ببلدنا الملمم الجزائر.

لقد اكتشف دالكروز، أثناء عمله كمدير لمسرح التجديدات Les Nouveautés بالجزائر العاصمة في عزّ شبابه أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر، أن الإيقاعات الشرقية - كما أسماها - تنطوي على تأثير بالغ العمق...، ولا نتخيل في تلك الإيقاعات إلا إيقاعات موسيقانا الجزائرية والتي نعتبرها قارة في موروثها الموسيقي. ومن هنا بدأ بحثه العميق الذي انتهى إلى ما يشبه الثورة في هذا الميدان... وأهل الاختصاص يعرفون ذلك. ولكن...

6. ما هي الموسيقى؟

الموسيقى هي ما يستيقظ فيك عندما تذكرك الآلات الموسيقية، فنحن الذين نضفي على الموسيقى وجودها، لأنها تبقى مجرد إيقاع وصوت ما لم نكسب لهاتين الظاهرتين ثراءً نفسيا عن طريق فهمنا وانفعالنا بها. ومن المؤكد أنه كلما ازدادنا معرفة بالموسيقى، ازدادنا تقديرا لمزاياها وفهما لها.

من مراجع البحث:

[1] بورتتوي، جوليبوس: الفيلسوف وفن الموسيقى، ترجمة حسين فوزي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974.

[2] فيبر، ماكس: الأسس العقلانية والسوسولوجية للموسيقى، ترجمة حسن صقر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2013.

[3] يوسف، نبيلة ميخائيل: العلاج بالموسيقى، 1999.

[4] شيشون، نجيب : دروس في علم الجمال، السنة الرابعة، تربية موسيقية، المدرسة العليا للأساتذة، القبة، (غير مطبوعة).

[5] Sadak, Amal : Researches and studies in psychology of music and music education, The Anglo-Egyptian bookshop, Cairo, 2006.